السَّكِينةُ

نحن في أمَسِّ الحاجةِ إلى هَدْيِ نبينا ﷺالرّبانِيِّ ، الذي لا تزيده الأيامُ إلا رسوخاً وشموخاً ، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى سنته المطهرةِ ، المنهجِ القويمِ ، والصراطِ المستقيمِ ، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى أخلاقِه العظمى ، التي لا يزيدها التأمُّلُ والتحليلُ إلا نضارةً وتألُّقاً .

وحقيقةُ إحياءِ ذكرى المولد أنْ نطبِّقَ سنتَه ﷺ ، وأنْ نتأسّى بسيرته ، لنقطفِ الثمارَ اليانعةَ ، التي قطفَها أصحابُه الكرامُ .

ومن الثمار الكبرى تلك السكينةُ التي تتنزّلُ على قلوبِ المؤمنين ، فتجعلُ الواحدَ منهم ، وهو في الناس رجلاً ، وفي الرجال بطلاً ، وبين الأبطالِ مَثَلاً .

ذلك أنّ المؤمنَ استجابَ لنداءِ فطْرته ، واهتدى إلى سرِّ وجودِه ، فتوضَّحتْ لديْهِ الغايةُ والطريقُ ، وأَنِسَ بالوجود كلِّه ، وعاشَ في معيَّة اللهِ ، ومعيَّة رسُلِه وأوليائِه ، ونَجَا مِن عذابِ الحَيرةِ والشكِّ .

إنّ السكينةَ وردتْ في القرآنِ الكريمِ في عدّةِ آياتٍ ، مِن أبرزِها قولُه تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح : ٤] ، وقال تعالى :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ١٨] .

فلا سعادةَ بلا سكينة ، ولا سكينةَ بلا إيمانٍ ، فالسكينةُ هي الغايةُ المثلى للحياةِ الرشيدةِ ، وهذه السكينةُ تزهرُ بغير عونٍ مِنَ المال ، بل بغيرِ مَدَدٍ مِنَ الصحَّة ، يَسعدُ بها الإنسانُ ، ولو فَقَدَ كلَّ شيء ، ويشقى بفَقْدِها ، ولو ملَك كلَّ شيءٍ ، هذه السكينةُ ليست مُلْكَ أحَدٍ فيمسكَها أو يرسلَها ، ولكنّها في متناوَلِ كلِّ واحدٍ مِن البشرِ ، إذَا دَفَعَ ثمنَها .

فما مِن نعمةٍ ـ تُحجَب معها السكينةُ ـ إلا وتنقلبُ بذاتِها إلى نِقمةٍ ، وما مِن محنةٍ تَحُفُّها السكينةُ إلا وتكونُ هي بذاتها نعمةً ، ينامُ الإنسانُ على الشوكِ مع السكينةِ ، فإذا هو مِهادٌ وَثيرٌ ، وينامُ على الحريرِ ، وقد أُمْسِكَتْ عنه السكينةُ ، فإذا هو ـ أيْ الحريرُ ـ شوكُ القَتَادِ[1] .

يعالجُ المرءُ أَعْسَرَ الأمورِ ـ ومعه السكينةُ ـ فإذا هي هوادةٌ ويُسْرٌ ، ويعالجُ أيسرَ الأمورِ ، وقد تخلّتْ عنه السكينةُ ، فإذا هي مشقَّةٌ وعسرٌ ، ويخوضُ المخاوِفَ والأخطارَ ، ومعه السكينةُ ، فإذا هي أمنٌ وسلامٌ ، ويعبرُ المناهجَ والسبلَ ، وقد أمسِكتْ عنه السكينةُ ، فإذا هي مهلَكةٌ وبوارٌ .

هذه السكينةُ لا تعزُّ على طالبٍ ـ كائناً مَن كان ـ في أيّ زمان ومكان ،

---

(١) [القتاد شجر شاك ـ فيه شوك ـ صُلْب ينبت بنجدٍ وتهامة ، واحدُه قَتادة ، قال أبو حنيفة : القتاد ذات شوك] ، (لسان العرب ، مادة قتد) .

وفي أيّ حال وَمآل ، وجَدها إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ في النار[١] ، ووَجَدها يوسفُ عليه الصلاة والسلام في الجُبِّ[٢] ، كما وجدَها في السجن فمكَّنه الله في الأرض[٣] ، ووجدَها يونسُ عليه الصلاةُ والسلامُ في بطنِ الحوت[٤] في ظلمات ثلاث[٥] ، ووجدَها موسى عليه الصلاةُ والسلام في اليمِّ[٦] ، وهو طفلٌ مجرَّد مِن كلِّ قوةٍ وحراسةٍ ، ووجدَها أصحابُ الكهف في الكهف ، حينما افتقدوها في الدُّورِ والقصورِ[٧] .

ووجدها نبيُّنا عليه الصلاة والسلام وصاحبُه في الغار[٨] ، والأعداءُ

---

(١) قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

(٢) قال عزوجل : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

(٣) قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

(٤) قال تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] .

(٥) ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

(٦) حين أمر اللهُ أمَّ موسى بإلقائه فيه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : مِنَ الآية ٧] .

(٧) قال تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٣ ـ ١٤] .

(٨) قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۚ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يتعقَّبونه ، ويَقُصُّون الآثارَ ، ويجدُها كلُّ مؤمنٍ أوَى إلى ربِّه ، يائساً ممّن سواهُ ، قاصداً بابَه وحدَه ، دون كلِّ الأبواب[١] .

يبسطُ اللهُ الرزقَ مع السكينةِ ، فإذا هو متاعٌ طيبٌ ، ورخاءٌ وفيرٌ ، وإذا هو رَغدٌ في الدنيا ، وزادٌ إلى الآخرة ، ويمسكُ السكينةَ مع الرزقِ ، فإذا هو مثارُ قلقٍ وخوفٍ ، وحسدٍ وبُغضٍ ، وقد يكون معه الحرمانُ ، ببخلٍ أو مرضٍ ، وقد يكونُ معه التَّلَفُ بالتفريطِ والاستهتارِ .

يمنحُ اللهُ الذريّةَ مع السكينةِ ، فإذا هي زينةُ الحياةِ الدنيا ، ومصدرُ فرحٍ واستمتاعٍ ، ومضاعفةٍ للأجرِ في الآخرةِ بالخَلَفِ الصالحِ ، ويمسكُ السكينة ، فإذا الذريّةُ بلاءٌ ، ونكَدٌ ، وعنتٌ ، وشقاءٌ ، وسهرٌ بالليلِ ، وتَعَبٌ بالنهارِ .

يهبُ اللهُ الصحةَ والعافيةَ مع السكينةِ ، فإذا هي نعمةٌ وحياةٌ طيبةٌ ، ويمسكُ سكينتَه ، فإذا الصحةُ والعافيةُ بلاءٌ يسلِّطُه اللهُ على الصحيحِ المعافَى ، فينفقُ الصحةَ والعافيةَ فيما يحطِّم الجسمَ ويفسدُ الروحَ ، ويدَّخرُ السوءَ إلى يوم الحساب .

ويعطي اللهُ الجاهَ والقوةَ مع السكينةِ ، فإذا هي أداةُ إصلاحٍ ، ومصدرُ أمنٍ ، ووسيلةٌ لادِّخارِ الطيِّبِ الصالحِ مِنَ العملِ والأثرِ ، ويمسكُ سكينتَه ، فإذا الجاهُ والقوةُ مصدرَا قلقٍ على فَوْتِه ، ومصدرَا طغيانٍ

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر : ٥١] ، وقال : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [يونس : ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

وبغيٍ ، ومصدَرا حِقْدٍ وكراهية ، لا يقرُّ لصاحبها قرارٌ ، ويدّخر بها للآخرة رصيداً ضخماً يدفع به إلى النار .

إنّ سكينةَ النفسِ هي الينبوعُ الأولُ للسعادة ، ولكنْ كيفَ السبيلُ إليها إذا كانت شيئاً لا يثمرُه الذكاءُ ، ولا العلمُ ، ولا الصحةُ والقوةُ ، ولا المالُ والغنَى ، ولا الشهرةُ والجاهُ ، ولا غيرُ ذلك مِن نِعَمِ الحياةِ المادية .

إنّ للسكينةِ مصدراً واحداً لا ثانيَ له ، هو الإيمانُ بالله واليوم الآخر ، الإيمانُ الصادقُ العميقُ ، الذي لا يكدِّرُه شكٌّ ، ولا يفسِدُه نفاقٌ ، والعملُ بمقتضى هذا الإيمان ، هذا ما يشهدُ به الواقعُ الماثلُ ، وما يؤيِّده التاريخُ الحافلُ ، وما يلمسه كلُّ إنسانٍ بصيرٍ منصفٍ في نفسِه ، وفيمَن حولَه .

لقد علَّمتنا الحياةُ أنّ أكثرَ الناس قلقاً وضيْقاً ، واضطراباً وشعوراً بالتفاهةِ والضياع هم المحرومون مِن نعمة الإيمان وبَرْدِ اليقين ، وإنّ حياتَهم لا طعمَ لها ولا مَذاقَ ، وإنْ حفلتْ باللذائذ والمرفِّهات ، إنّهم لا يدركون لها معنى ، ولا يعرفون لها هدفاً ، ولا يفقهون لها سرًّا ، فكيف يَظفَرُون مع هذا بسكينةِ النفسِ وانشراحِ الصدرِ ؟ .

إنَّ هذه السكينةَ ثمرةٌ من ثمارِ دَوْحةِ الإيمانِ ، وشجرةِ التوحيدِ الطيبة ، التي تؤتِي أكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، وهي نفحةٌ مِنَ السماءِ ، يُنزِلُها اللهُ على قلوبِ المؤمنين مِن أَهلِ الأرضِ لِيَثبُتُوا إذا اضطربَ الناسُ ، ولِيرضَوْا إذَا سخط الناسُ ، ولِيوقِنوا إذا شكَّ الناسُ ، ولِيصبِروا إذا جزِعَ الناسُ ، ولِيحلُمُوا إذا طاشَ الناسُ .

هذه السكينةُ نورٌ مِنَ الله ، وروحٌ منه ، يسكنُ إليها الخائفُ ، ويطمئنُّ عندَها القلِقُ ، ويتسلَّى بها الحزينُ ، ويستروِحُ إليها المتعَبُ ، ويقوَى بها الضعيفُ ، ويهتدِي بها الحيرانُ .

هذه السكينةُ نافذةٌ على الجنّة ، يفتحُها اللهُ للمؤمنينَ من عباده ، منها تهبُّ عليهِم نسماتُها ، وتشرقُ عليهم أنوارُها ، ويفوحُ شذاها وعطرُها ، ليذيقَهم بعضَ ما قدَّموا من خير ، ويريَهم نموذجاً لِمَا ينتظرُهم مِن نعيمٍ ، فينعموا من هذه النسمات بالروح والرَّيْحان ، والأمنِ والإيمان ، ففي الدنيا جنَّةٌ ، مَن لم يدخلْها لم يدخلْ جنَّةَ الآخرة ، إنها جنّةُ القُرْبِ ، إنها جنةُ السكينة ، قال تعالى :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٦] .

أسبابُ السكينةِ لدى المؤمنِ

أولُ أسبابِ السكينةِ لدَى المؤمنِ أنَّه هُدِيَ إلى فطرتِه التي فَطَرَه اللهُ عليها ، وهي فطرةٌ متّسقةٌ ، ومتجاوبةٌ مع فطرةِ الوجودِ الكبيرِ كلِّه ، فعاشَ المؤمنُ مع فطرته في سلامٍ ووئامٍ ، لا في حربٍ وخصامٍ ، ومَعَ مَن حولَه في شفافيةٍ ومشاركةٍ ، لا في وحشةٍ وعداوةٍ .

ذلك لأنّ في القلب شعثاً لا يلمُّه إلا الإقبالُ على الله ، وفي القلبِ وحشةً لا يُزيلُها إلا الأنسُ بالله ، وفيه حزنٌ لا يذهبُه إلا السرورُ بمعرفةِ الله ، وفيه قلقٌ لا يُسكِنه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ إليه ، وفي القلبِ نيرانُ حسراتٍ لا يطفئُها إلا الرضى بأمْرِه ، ونهيِه ، وقضائِه وقدَرِه ، والصبرِ على ذلك إلى يوم لقائه ، وفي القلبِ فاقةٌ لا تسدُّها إلا

محبتُه ، والإنابةُ إليه ، ودوامُ ذكره ، وصِدقُ الإخلاص له ، وتظلُّ الفطرةُ الإنسانيةُ تشعرُ بالتوتُّرِ والجوعِ والظمأِ ، حتَّى تَجدَ اللهَ ، وتؤمنَ به ، وتتوجّه إليه ، عندها تستريحُ مِن تعبٍ ، وترتوي مِن ظمأٍ ، وتأمَنُ مِن خوفٍ ، وتشعرُ بالهدايةِ بعدَ الحيرة ، وتشعرُ بالاستقرارِ بعد التخبُّطِ ، وتطمئنُّ بعْدَ القلقِ .

إنّ الإنسانَ خَلقٌ عجيبٌ ، جُمِعَ بين قبضةٍ مِن طينِ الأرضِ ، ونفخةٍ مِن رُوح الله ، فمَن عَرَفَ جانبَ الطينِ ، ونسيَ نفخةَ الروحِ لم يعرفْ حقيقةَ الإنسان ، ومَن أعطَى الجزءَ الطينيَّ فيه غذاءَه وريَّه ، ولم يعطِ الجانبَ الروحيَّ غذاءَه وريَّه من الإيمان بالله ، والإقبال عليه فقد بَخَسَ الفطرةَ الإنسانيةَ حقَّها ، وجهِلَ قدرَها ، وحَرَمَها ما به حياتُها وقوامُها .

وقد يتراكمُ على هذه الفطرة صَدَأُ الشبهاتِ ، أو غبارُ الشهواتِ ، وقد تنحرفُ وتتدنَّسُ باتِّباعِ الظنِّ ، أو اتّباعِ الهوَى ، أو التقليدِ الجاهلِ للأجدادِ والآباءِ ، أو الطاعةِ العمياءِ للسادةِ والكبراءِ ، وقد يُصابُ الإنسانُ بداءِ الغرورِ والعُجْبِ ، فيظنُّ نفسَه شيئاً يقومُ وحدَه ، ويستغنِي عن الله .

بَيْدَ أنّ الفطرةَ الأصيلةَ تذبلُ ولا تموتُ ، وتَكْمُنُ ولا تزولُ ، فإذا اصاب الإنسانَ مِن شدائدِ الحياةِ ومصائبِها ما لا قِبَلَ له به ، ولا يدَ له ولا للناسِ في دفعِه ولا رفعِه ، فسرعانَ ما تزولُ القشرةُ السطحيةُ المضلِّلةُ ، وتبرزُ الفطرةُ العميقةُ الكامنةُ ، وينطلقُ الصوتُ المخنوقُ المحبوسُ داعياً ربَّه ، منيباً إليه ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٧] .

وضوحُ الغايةِ والطريقِ عند المؤمنِ

إنّ غيرَ المؤمنِ يعيشُ في الدنيا تتوزَّعُه همومٌ كثيرةٌ ، وتتنازعُه غاياتٌ شتّى ، هذه تميلُ به إلى اليمينِ ، وتلك تجذِبُه إلى الشمالِ ، فهو في صراعٍ دائمٍ داخلَ نفْسِه ، وهو في حيرةٍ بينَ غرائزِه الكثيرةِ أيّها يرضي ، غريزةَ البقاءِ أم غريزةَ النوعِ ؟ وهو حائرٌ مرةً أخرى بينَ إرضاءِ غرائزِه ، وإرضاءِ المجتمعِ الذي يحيا فيه ، وهو حائرٌ مرةً ثالثةً ، أيّ فئاتِ المجتمعِ يرضي ؟ وهنا يذكرون الحكايةَ المشهورةَ ؛ حكايةَ الشيخِ وولدِه وحمارِه ، ركبَ الشيخُ ومشى ولدُه وراءَه ، فتعرَّض الشيخُ لِلَومِ النساءِ ، وركِبَ الولدُ ومشى الشيخُ ، فتعرَّض الولدُ للَوْمِ الرِّجال ، وركبا معاً فتعرَّضا للومِ دعاةِ الرِّفقِ بالحيوانِ ، ومَشَيَا معاً والحمارُ أمامهما ، فتعرَّضا لسخريةِ الأولادِ ، واقترحَ الولدُ أنْ يحملاَ الحمارَ ، ليستريحا مِن لومِ اللائمين ، فقال له الأبُ الشيخُ : لو فَعَلْنَا لأتْعَبْنَا أنفسَنا ، ولرَمَانَا الناسُ بالجنونِ ، حيث جعلْنا المركوبَ راكباً ، يا بني ؛ لا سبيلَ إلى إرضاءِ الناسِ .

لقد استراح المؤمنُ من هذا كلِّه ، وحصَرَ الغاياتِ كلَّها في غايةٍ واحدةٍ ، عليها يحرِصُ ، وإليها يسعى ، وهي رضوانُ الله تعالى ، لا يبالي معها بِرِضَى الناس أو سَخَطِهم ، شعارُهُ ما قاله ذاك الشاعر :

فليتكَ تحلُو والحياةُ مَـــريرةٌ ... وليتك ترضَى والأنامُ غضــابُ

وليتَ الذي بيني وبينَك عامِـرٌ ... وبيني وبين العالَمينَ خَــرابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيــنٌ ... وكلُّ الذي فوق الترابِ تــرابُ

لقد جعل المؤمنُ همومَه همًّا واحداً ، هو سلوكُ الطريقِ الموصلِ إلى مرضاتِه تعالى ، والذي يسألُ اللهَ تعالى أنْ يهديَه إليه في كلِّ صلاةٍ عدَّةَ مراتٍ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ، هو طريقٌ واحدٌ لا عِوَجَ فيه ، ولا التواءَ ، قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وما أعظَمَ الفَرْقَ بين رَجُلين ؛ أحدُهما عَرَفَ الغايةَ ، وعرفَ الطريقَ إليها ، وآخرُ ضالٌّ يخبطُ في عمايةٍ ، ويمشي إلى غيرِ غايةٍ ، لا يدري إلامَ المسيرُ ؟ ولا إلى أين المصيرُ ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[المُلك : ٢٢]

في غزوةِ الأحزابِ ، وقد ابتُلِي المؤمنون ، وزُلزِلُوا زلزالاً شديداً ، إذْ جاءَهم الأعداءُ مِن فوقِهم ، ومن أسفلَ منهم ، وإذ زاغتِ الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الخناجرَ ، وظنَّ الناسُ بالله الظنونَ ، وكَشَفَ المنافقون النقابَ ، فقالوا :

﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ ﴾ [الأحزاب : ١٢] .

في هذا الجوِّ الرهيبِ كان موقفُ المؤمنين هو موقفَ السكينةِ ، والطمأنينةِ الذي عُهِدَ منهم ، والذي سجَّلهُ اللهُ لهم في كتابه ، فقال تعالى :

و﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

لقد عَرَفَ المؤمنُ الغايةَ فاستراحَ ، وعَرَفَ الطريقَ فاطْمأنَّ ، إنه طريقُ الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين .

اهتداءُ المؤمنِ إلى سرِّ وجودِه

إنّ في أعماقِ الإنسانِ أصواتاً خفيةً تناديهِ ، وأسئلةً تُلحُّ عليه ، منتظرةً الجوابَ الذي يَذهبُ به القَلَقُ ، وتطمئنُّ به النفسُ ، ما العالَمُ ؟ ما الإنسانُ ؟ مِن أين جاءا ؟ مَن صَنَعَهُمَا ؟ مَن يدبِّرُهما ؟ ما هدفهُما ؟ كيف بَدَءَا ؟ كيف ينتهيانِ ؟ ما الحياةُ ؟ ما الموتُ ؟ ماذا بعدَ الموتِ ؟ هذه الأسئلةُ التي ألَّحتْ على الإنسانِ مِن يومِ خُلِقَ ، وإلى أن تُطوى صفحةُ الحياةِ لم تجدْ ، ولن تجدَ لها أجوبةً شافيةً إلا في الدِّين ، فهو وحدَه الذي يَحُلُّ عقدةَ الوجودِ الكبرى ، وهو المرجعُ الوحيدُ الذي يستطيعُ أنْ يجيبَنَا عن تلك الأسئلةِ بما يرضي الفطرةَ ، ويُقنعُ العقلَ .

المؤمن يعيش في معية الله

إنَّ شعورَ المؤمنِ بمعيّةِ اللهِ وصُحْبَتِهِ يجعلُه في أُنْسٍ دائمٍ بربِّه ، ونعيمٍ موصولٍ بقُرْبِه ، يَشعرُ بالنورِ يَغْمُرُ قلبَه ، ولو أنّه في ظلمةِ الليلِ البهيمِ ، ويَشعرُ بالأُنسِ يملأ عليه حياتَه ، كيف يَشعرُ المؤمنُ بالوِحدةِ وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وإنْ كانَ في وحشةٍ مِنَ الخلطاءِ والمعاشِرين ، قال عزوجل :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

إنّه يشعرُ بما شعرَ به موسى عليه السلامُ حينما قال لبني إسرائيل :

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

إنّه يشعرُ بما شعر به محمَّد ﷺ وهو في الغار :

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

إنَّ شعورَ المؤمنِ أنَّ يدَه في يد الله ، وأنّ عنايتَه تسيرُ بجانبه ، وأنّه ملحوظٌ بعينِه التي لا تنام ، وأنّه معه حيث كان ، يَطرُدُ عنه شبحَ الوِحدةِ المخيفَ ، ويُزيحُ عن نفسهِ كابوسَها المزعجَ ، يقولُ اللهُ تعالى في الحديث القدسي : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[1] ، ويقول تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

فالمؤمنُ لا يَعْتَريه ذلك المرضُ النفسيُّ الوبيلُ ، الذي يفتِكُ بالمحرومين مِنَ الإيمان ، مرضُ الشعورِ بالوحدة المُقلِقَةِ ، إذ يشعرُ صاحبُه أنّ الدنيا مقفَلةٌ عليه ، وأنه يعيش منعزلاً ، والعلاجُ الأمثلُ لهذا المرض هو اللُّجوءُ إلى الدين ، والاعتصامُ بعروةِ الإيمانِ الوثقى ، وإشعارُ المريضِ بمعيةِ اللهِ ، والأنسِ به .

---

(١) البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة .

المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصديقين .

إنّ المؤمنَ لا يشعرُ أنّه في عزلةٍ عن إخوانه المؤمنين ، إنهم إنْ لم يكونوا معه في عملِه أو مسجدِه أو مسكنِه فهم يعيشون دائماً في ضميره ، ويحيَوْن في فكره ووجدانه ، فهو إذا صلى منفرداً تحدث باسمهم :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وإذا دَعَا دَعا باسمِهِمْ :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وإذا ذكَر نفسه ذكَرهم : « السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ »(١) .

إنه لا يعيشُ مَع مؤمنِي عصرِه فحسبُ ، بل يتخطَّى الأجيالَ ، ويخترِقُ العصورَ والمسافاتِ ، ويحيَا مع المؤمنين ، وإن باعدتْ بينه وبينهم السنونَ والأعوامُ ، ويقول ما قال الصالحون :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] .

إنّ المؤمنَ يشعرُ أنه يعيش بإيمانه وعملِه الصالحِ مع أنبياء الله ، ورسلِه المقرَّبين ، ومع كل صِدّيق وشهيد وصالح من كل أمة ، وفي كلّ عصر ، دلَّ على هذا كلّه قولُه سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

---

(١) البخاري (٧٩٧) ، ومسلم (٤٠٢) من حديث طويل عن عبد الله بن مسعود .

أُنْسُ المؤمنِ بالوجود كلّه

يعيشُ المؤمن موصولاً بالوجود كلّه ، ويحيا في أُنْس به ، وشعورٍ عميقٍ بالتناسقِ معه ، وارتباطٍ به ، فليس هذا الكونُ عدوًّا له ، ولا غريباً عنه ، إنَّه مجالُ تفكُّرِه واعتبارِه ، ومسرحُ نظرِه وتأمُّلاتِه ، ومظهرُ نِعَمِ الله ، وآثارُ رحمته .

هذا الكونُ الكبيرُ كلُّه يخضعُ لنواميسِ الله ، كما يخضعُ المؤمنُ ، ويسبِّحُ بحمد الله كما يسبِّحُ المؤمنُ ، وهذا المؤمنُ ينظرُ إليه نظرتَه إلى دليلٍ يَهْدِيهِ إلى ربِّه ، وإلى صديقٍ يؤنِسُه في وحْشتِه .

وبهذه النظرةِ الودودِ ، الرحبةِ للوجودِ ، تتّسع نفْسُ المؤمن ، وتتّسع حياتُه ، وتتّسع دائرةُ الوجود الذي يعيش فيه ، فليس هناك حينئذٍ أوسعُ مِن صدرِ المؤمن وقلبه ، الذي وسعَ العالَميْنِ ؛ المنظورَ ، وغيرَ المنظور ، عالَمَ الشهادة ، وعالَمَ الغيب ، ووسع الحياتين ؛ حياةَ الفناء ، وحياةَ الخلود .

والنفسُ المؤمنةُ رحبةٌ واسعةٌ ، لأنّها تعيشُ في نورٍ يهديها سبيلَها ، ويكشفُ لها ما حولَها ، ومِن شأن النور أنْ يوسِّع الدائرةَ التي يحيا فيها الإنسانُ ، على عكسِ الظلامِ ، فإنَّ الذي تكتنِفُه الظلمةُ لا يرى ما حولَه ولا مَن حولَه ، بل لا يرى الشيءَ وهو بجوارِه ، بل لا يرى نفْسَه ، فقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ، فقال : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ إِلَى الْقَلْبِ اتَّسَعَ وَانْفَسَحَ »[1] .

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدرَكه (٣٤٦/٤) ، والطبري (٢٧/٨) وابن كثير =

فالإيمانُ باللهِ وباليومِ الآخرِ هو الذي يرفعُ الإنسانَ مِن البهيميَّةِ إلى الإنسانيّة ، ومِنَ الطفولةِ إلى الرشدِ ، ومن المحسوسِ إلى المعقولِ ، ومِنَ المنظورِ إلى غَيرِ المنظورِ .

الصلاةُ والدعاءُ من بواعثِ السّكينةِ

ومِن أسبابِ السكينةِ النفسيةِ التي حُرِمَهَا الماديُّون ، ونَعِمَ بها المؤمنون ما يناجِي به المؤمنُ ربَّه كلَّ يوم ، من صلاةٍ ودعاءٍ ، فالصلاةُ لحظاتُ ارتقاءٍ روحيٍّ ، يفرغُ المرءُ فيها مِن أشغالِه في دنياه ، ليقفَ بين يديْ ربِّه ومولاه ، يثني عليه بما هو أهلُه ، ويفضي إليه بذاتِ نفْسِه ، داعياً راغباً ضارعاً ، وفي الاتصالِ بالله العليِّ الكبير قوة للنفس ، ومددٌ للعزيمة ، وطمأنينة للروح ، لهذا جعلَ اللهُ الصلاةَ سلاحاً للمؤمنِ ، يستعينُ بها في معركةِ الحياةِ ، ويواجهُ بها صعوباتِها

وكان سيدنا النبيُّ ﷺ إذَا حَزَبَهُ[١] أمرٌ بادرَ إلى الصلاة ، ولم تكن صلاتُه مجرّدَ شكلٍ أو طقسٍ يُؤدَّى ، إنما كانت استغراقاً في مناجاةِ الله ، حتى إنّه كان إذا حان وقتُها قال ﷺ لمؤذِّنِه بلالٍ في لهفةِ المتشوِّقِ ، واشتياقِ الملهوفِ : « يَا بِلاَلُ أَقِمْ الصَّلاَةَ ، أَرِحْنَا بِهَا »[٢] ، وكان ﷺ يقول : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ »[٣] .

= (٢/ ١٧٥) ، في تفسيرهما . وذكر ابن كثير طرقاً متصلة ومرسلة يشد بعضها بعضاً .

(١) [أي نابَه ، وألَمَّ به أمرٌ شديد] ، (شرح مسلم للنووي (١٧/ ٤٨) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) ، وأحمد (٢٣١٣٧) عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ .

(٣) أخرجه النسائي (٨٨٨٧) ، وأحمد (١٢٣١٥) ـ (١٢٣١٦) عَنْ أَنَسٍ .

المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت)

إنّ مِن أهمِّ عواملِ القلقِ التي تُفقِدُ الإنسانَ سكينةَ النفسِ ، وأمْنَها ورضَاها تَحَسُّرَهُ على الماضي ، وسخطَه على الحاضر ، وخوفَه مِنَ المستقبل .

إنّ بعضَ الناسِ تنزِلُ بهم النازلةُ من مصائبِ الدهرِ ، فيظلُّ شهوراً وأعواماً يجترُّ آلامَها ، ويستعيدُ ذكرياتِها القاتمةَ ، متحسِّراً تارةً ، متمنِّياً أخرى ، شعارُه « ليتني فعلت ، وليتني تركت » ، وأبعدُ الناس عن الاستسلام لِمِثْلِ هذه المشاعرِ المؤلمةِ ، والأفكارِ السوداويةِ هو المؤمنُ ، الذي قَوِيَ يقينُه بربِّه ، وآمَنَ بقضائِه وقَدَرِه ، فلا يسمحُ لنفسِه أنْ تكونَ فريسةَ التحسُّرِ على الماضي ، ولا السخطِ على الحاضرِ ، ولا الخوفِ مِن المستقبل ، ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وقال النبي ﷺ : « وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللهِ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »[1] .

* * *

قصة أويس القرني

هذه القصة تجسِّد حقيقةَ السَّكينةِ ، فقدْ أخرج مسلمٌ في صحيحِه في كتابِ فضائلِ الصحابةِ ، باب من فضائلِ أويس القرنيّ رضي الله عنه ، عَنْ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة .

أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ « أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ الْقَرَنِيِّينَ ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَ : « إِنَّ رَجُلاً يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ : لاَ يَدَعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمٍّ لَهُ ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَدَعَا اللهَ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ ، إِلاَّ مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدِّرْهَمِ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ »[1] .

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ ، وَلَهُ وَالِدَةٌ ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ »[2] .

وقد ورد في كتب السيرة أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمرَ بن الخطاب وعليِّ بن أبي طالب :

« إذا لقيتما أُوَيساً القَرنيَّ فاسْألاَهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لَكُمَا ، فَإِنَّهُ مُجَابُ الدَّعْوَةِ » ، فترصدا موسمَ الحجِّ عشرَ سنينَ يدعُوانِ أَهلَ الموسم مِنَ اليَمَنِ على طعامٍ ، فما ظَفرا بضالّتهما ، ثم جاء العامُ الذي يَلِيهِ فقال عمرُ لرئيسِ وفدِ اليَمَنِ : أبقي أحدٌ لم يحضر وليمتنا ، قال : لا ، إلا فتىً خامل الذكر ، يرعى إبلاً لنا ، فقال له سيدنا عمر : أهو آدمُ أشهلُ[3] ذو

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢) .
(٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) .
(٣) [الشُّهلة حُمْرة في سواد العين ، وهي كالشُّكلة في البياض] ، (النهاية في غريب الحديث (٢/٥١٦) ، [الشُّهلة في العين : أنْ يشوبَ سوادَها زُرقةٌ] ، (لسان العرب ، مادة شهل) .

صهوبةٍ[١] ؟ فقال : كأنَّك تعرفُه يا أميرَ المؤمنين ، فذهب عمرُ وعليٌّ إليه ، فلما أتَيَاه قالا : مَنِ الرجلُ ؟ قال : راعي إبلٍ ، وأجيرُ قومٍ ، قالا : لسنا نسألك عن ذلك ، ما اسمُك ؟ قال : عبدُ الله ، قال له عليٌّ رضي اللهُ عنه : قد عَلِمنا أنّ كلَّ مَن في السماوات والأرضِ عبيدٌ لله ، ما اسمُك الذي سمَّتك بِهِ أمُّك ؟ قال : يا هذان مَن أنتما ؟ وما تريدان منّي ؟ فقال عمرُ : أنا عمر بن الخطاب ، وهذا عليُّ بن أبي طالب ، فانتفضَ واقفاً ، وقال : جزاكما اللهُ عن الإسلام خيراً ، يا أميرَ المؤمنين ، ويا صهرَ رسول الله ، أما أنتما فقد كان لكما شرفُ الصُّحبةِ ، وأما أنا فقد حُرِمْتُ هذا الشّرفَ ، فقال له سيدنا عمر : كيف تتصوَّرُ النبيَّ ﷺ يا أويسُ ؟ قال أتصوّرُه نوراً يملأ الأفقَ ، فبكى عمرُ شوقاً إلى النبي ﷺ ، قال عمرُ : يا أويسُ ، إنّ النبيَّ أمرَنا أنْ تستغفرَ لنا ، وأنْ تدعوَ لنا ، قال : ما أخص باستغفاري نفسي ولا أحداً من ولد آدم ، ولكنه في البر والبحر من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، قال عمرُ : يا أويسُ عِظْنِي ، قال يا أمير المؤمنين. . . اطلبْ رحمةَ الله عند طاعته ، واحذَرْ نقمتَه عند معصيته ، ولا تقطعْ رجاءَك منه ، قال سيدنا عمر : أفلا نأمر لك بصلة ؟ قال : يا أمير المؤمنين : أخذتُ على عملي أربعةَ دراهمَ ، ولي على القوم ذمّة ، متى تراني أُنفِقُها ؟ وعليّ رداءٌ وإزارٌ ، متى تراني أخرقهما ؟ يا أمير المؤمنين ، إنَّ بين يدي ويديك عقبةً

---

(١) [الأصهب الذي يعلو لونَه صُهبةٌ ، وهي كالشّقرة ، . . . والمعروف أنّ الصُّهبة مختصَّةٌ بالشَّعر ، وهي حُمرة يعلوها سواد] ، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٦٢) ، [الصُّهبة أن يعلو الشَّعرَ حُمرةٌ] ، لسان العرب (١٥٣٢) .

كؤوداً ، لا يقطعها إلا كلُّ مخفٍّ مهزولٍ ، فبكى عمرُ ، وقال : ليت أمُّ عمرَ لم تَلِدْ عمرَ ، قال : يا أويسُ ، ألا تقيمُ عندنا ؟ قال : أريدُ الكوفةَ ، قال : أفلا أكتبُ لك إلى عاملها ؟ قال : أحِبُّ أنْ أكونَ في دهماء الناس .

ثم مضى أويسٌ ومضى إلى سبيله ، ومات في غمارِ خيمةٍ مِن خيامِ المسلمين ، خاملاً في الأرضِ عَلماً في السماءِ ، إنها السكينةُ التي يسعَدُ بها الإنسانُ ، ولو فقَدَ كلَّ شيءٍ ، ويشقى بفقْدِها ، ولو مَلَكَ كلَّ شيءٍ .

* * *

هذا عن الماضي المزدهِر ، الذي عاشتْه أمَّتُنا ، أوْ ما ينبغي أنْ يكونَ عليه المؤمنون ، فماذا عن الحاضر الذي نعيشه ، أو ما هو عليه المؤمنون ؟

وليس هناك مِن مرحلةٍ في تاريخِ أمَّتنا نحن في أَمَسِّ الحاجةِ فيها إلى الصلحِ مع الله ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه ، وقد غرق العالَمُ في الشهواتِ والشبهاتِ ، والفتنِ والضلالاتِ ، كهذه المرحلة التي تعيشُها أمَّتُنا العربيةُ والإسلاميةُ .

وليس هناك مِن مرحلةٍ في تاريخ أمتنا نحن في أمسِّ الحاجةِ فيها إلى التعاونِ والتكاتُفِ والتناصرِ والتضامنِ كهذه المرحلةِ الدقيقةِ التي نمرُّ بها ، ولاسيما في ظلِّ النظامِ العالمِيِّ الجديدِ ، وفي ظلِّ غيابِ التوازنِ الدوليّ ، وتحكُّمِ القطب الواحد ، وازدواجيةِ المعايير ، وسيطرةِ الاحتكاراتِ الكبرى ، والتطوراتِ الهائلة في وسائل الاتصالات

والمعلوماتية ، وازديادِ الهوَّة بين الدولِ الغنيّةِ المتقدمةِ والدولِ الناميةِ ، وانفجارِ الحروبِ الإقليميةِ والمحليةِ ، والصراعاتِ القبَليّةِ ، والدينيةِ ، والعِرْقيّةِ في مناطقَ متعدِّدةٍ مِنَ العالَمِ ، إضافةً إلى نهجِ العَوْلَمَةِ الثقافيةِ ، والاقتصاديةِ .

إنّ العالَمَ اليومَ يكاد يتحوَّل إلى غابةٍ تتحكَّم فيها قواعدُ القوّة ، وتغيب عنها ضوابطُ المبادئ والقيم ، ومعُ ذلك فإنَّ قُوى الهيمنة تتحدَّثُ عن حقوق الإنسان ، في الوقتِ الذي يجري فيه انتهاكٌ لحقوق الإنسان ، والعالمُ الإسلاميُ اليومَ يواجه تحدياتٍ كبيرةً ، تستهدفُ الإسلامَ وما يمثِّلُه من قيمٍ نبيلةٍ ، وما يدعو إليه من أخوةٍ وعدالةٍ ومساواةٍ وحرية ، وإذا كان من واجبنا أن ندافعَ عن ديننِا فإن لنا فيه يَنبوعَ قوةٍ ، ومصدر إلهام في مواجهةِ كلِّ ما يقابلُنا من أخطارٍ وتحدياتٍ .

* * *

الخسوفُ والكسوفُ

لقد توفِّي سيِّدُنا إبراهيمُ ابنُ رسولِ الله ﷺ ، فوَقَفَ النبيُّ ﷺ موقفَ الأبِ الرحيمِ الحاني ، المؤمنِ بقضاءِ اللهِ وقدَرِه ، الصابرِ لحُكْمِه ، الراضي بمشيئتِه ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : « دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ ، وَكَانَ ظِئْراً[1] لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ

(١) [قوله : ظِئْرا ، بكسر المعجمة وسكون التحتانية المهموزة ، بعْدها راءٌ ، أيْ مرضِعا ، وأُطلِق عليه لأنه كان زوجَ المرضِعة ، وأصل الظِّئر مِنْ ظأرت الناقةُ إذا عطفتْ على غير ولدها ، فقيل ذلك للتي ترضِع غيرَ ولدِها ، وأُطلِق ذلك على زوجها=

السَّلاَم ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ ، وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ ، فَقَالَ : (يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ) ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى ، فَقَالَ ﷺ : (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ »[1] .

وقد رافقَ موتَ سيدِنا إبراهيمَ كسوفُ الشمسِ ، فظنَّ الصحابةُ الكرامُ أنّ الشمسَ كَسَفتْ لموتِ إبراهيمَ ، فوقفَ النبيُّ ﷺ خطيباً في أصحابه ، وهو أمينُ وحيِ السماءِ ، رافضاً أنْ تختلطَ حقائقُ العلمِ بمشاعرِ المسلمين ، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ »[2] .

إذاً فما التفسير العلمي لهاتين الظاهرتين ؟ قيل :

الخسوفُ هو اختفاءُ القمرِ أو بعضِه في أثناءِ مرورِ الأرضِ بينَه وبينَ الشمسِ ، أما **الكسوفُ** فهو اختفاءُ الشمسِ أو بعضِها في أثناءِ مرورِ القمرِ بينَها وبينَ الأرضِ .

إنّ الكسوفَ والخسوفَ إشارتانِ إلى نعمةِ الشمسِ والقمرِ ، فهما آيتان دالَّتان على عظمةِ الله ورحمتِه ، قال العليُّ العظيمُ :

= لأنه يشاركها في تربيته غالباً] ، (فتح الباري ٣/ ١٧٣) .

(١) البخاري (١٢٤١) ، ومسلم (٢٣١٥) .

(٢) البخاري (١٠٠١) ومسلم (٩١٥) .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وقال سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : ٧١] .

وقد يسأل سائلٌ : كيف يغطّي القمرُ قرصَ الشمسِ ، مع أنه أصغرُ منها بأربعمئة مرّةٍ ، الجوابُ : إنّ الشمسَ أَبْعَدُ عن الأرضِ مِنَ القمرِ بأربعمئة مرّةٍ ، وهذا ما يجعلهُما يظهرانِ بالحجمِ نفسِه ، لذلك يمكنُ للقمرِ أنْ يحجُبَ أشعةَ الشمسِ كلياً إذا مرّ بينها وبينَ الأرض .

ويجبُ ألا يشغلَنا جمالُ منظرِ الكسوفِ عن خطرِ الأشعةِ الشمسيةِ على أعيننَا ، إذِ النظرُ إلى الشمسِ في أثناءِ الكسوفِ دون نظارةٍ سوداءَ خاصةٍ بالكسوفِ يسبِّبُ أضراراً بالغةً للعين ، دونَ أنْ يشعرَ الإنسانُ ، لأنّ شبكيّةَ العين لا تحوي أيَّ مستقبل للألمِ ، وهنا يجبُ الانتباهُ بشكلٍ خاصٍّ للأطفالِ الذين لا يقدِّرون الخطرَ ، ولأنّ شبكياتِ أعينِهم أكثرُ حساسيةً مِنَ الكبار ، لذلك سنّ لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الكسوف ، ونَدَبَ أنْ نطيلَ القراءةَ فيها ، وأنْ نطيلَ السجودَ ، ليغطّيَ سجودُنا وقتَ الكسوفِ .

كان الكسوفُ في الحادي عشرَ مِن شهرِ آبٍ (١٩٩٩ م) ، مرئياً في جميع أنحاءِ الوطنِ العربي ، لكنه لم يكنْ كلّياً إلا في أقصى الشمالِ الشرقي منه ، ففي الشمالِ الشرقيِّ مِن سوريةَ بدأ ذلك العرضُ الفلكيُّ بُعَيْدَ ظُهْرِ ذلك اليوم بمرحلة الكسوفِ الجزئي ، الذي استمرَّ ساعةً تقريباً ،

ومِن ثَمَّ غربت الشمسُ واختفت كلِّيًا ، وحلَّ الظلامُ التامُّ مدةَ دقيقتين .

وفي هاتين الدقيقتين أتيحَ لنا أنْ نشاهدَ الانفجاراتِ التي حدثَت على سطحِ الشمسِ ، وقد أمكنَنا أيضاً أنْ نرى ألسنةَ اللهبِ التي يقتربُ طولُها من مليون كيلو متر ، وسيكونُ بالإمكانِ رؤيةُ الكواكبِ الخمسة ؛ عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل .

وهناك تعبيرٌ شائعٌ بين الناس ، حينما يتحمّلُ الإنسانُ ما لا يحتملُ ، يقال عنه : رأى النجومَ ظهراً ، لكن. . . في أثناء الكسوفِ نرَى النجومَ ظهراً حقيقةً لا مجازاً .

كثيراً ما يجري على لسان الناس إطلاقُ هاتين الكلمتين (الكسوف والخسوف) ، فيحدِّدون إحداهما للقمرِ ، والأخرى للشمسِ ، فارْتَأَينا إدراجَ هذه الفائدةَ اللغويةَ هنا ، عسى أنْ يكونَ فيها شيءٌ مِن النفعِ .

جاء في لسان العرب : « كسَف القمرُ يَكْسِفُ كُسوفاً ، وكذلك الشمس كَسَفَتْ تكْسِف كسوفاً : ذهب ضوءُها ، واسْوَدَّت ، والبعض يقول : انكسف وهو خطأٌ ، وكَسَفَها اللهُ وأَكْسَفَها. . . والقمرُ في كل ذلك كالشمس ، وكسف القمرُ : ذهبَ نورُه ، وتغيَّر إلى السوادِ. . . كسفتِ الشمسُ وخسَفتْ بمعنًى واحدٍ ، وقد تكرَّر في الحديثِ ذكرُ الكُسوف والخُسوف للشمس والقمر ، فرواه جماعةٌ فيهما بالكافِ ، ورواه جماعةٌ فيهما بالخاء ، ورواه جماعةٌ في الشمسِ بالكافِ ، وفي القمرِ بالخاءِ ، وكلُّهم روَوا أَن الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ اللهِ لا يَنْكسفان لموتِ أَحَدٍ ولا لحياته ، والكثيرُ في اللغة وهو اختيارُ الفراءِ أَنْ يكونَ الكسوفُ للشمسِ ، والخسوفُ للقمر ، يقال : كسَفت

الشمسُ ، وكَسَفَها اللهُ ، وانكسفت ، وخسف القمرُ وخسفَه اللهُ وانخسف . . . قال أَبو زيد : كسفتِ الشمسُ إِذا اسْودَّت بالنهارِ ، وكسفتِ الشمسُ النجومَ إِذا غلبَ ضوءُها على النجومِ فلم يَبْدُ منها شيءٌ ، فالشمسُ حينئذٍ كاسفةُ النجومِ »[١] .

قال ثعلب : « كسفت الشمسُ ، وخَسَفَ القمرُ ، هذا أَجْوَدُ »[٢] .

قال ابن الأثير : « وقد وَرَد الخُسوفُ في الحديثِ كثيراً للشمسِ ، والمَعْروفُ لها في اللغةِ الكُسُوفُ لا الخُسُوفُ ، فأما إطلاقُه في مِثلِ هذا الحديثِ فَتَغْليباً للقمرِ لتذكيرِه على تأنيثِ الشمسِ ، فجَمع بينهما بما يَخُصُّ القمرَ ، وللمعاوَضَةِ أيضاً ، فإنه قد جاء في روايةٍ أخرى : إنّ الشمسَ والقمرَ لا يَنْكَسفان ، وأمّا إطلاقُ الخُسُوفِ على الشمسِ منفردةً فلاشتراكِ الخسُوفِ والكُسُوفِ في معنى ذهابِ نورِهما ، وإظلامِهما »[٣] .

* * *

(١) لسان العرب مادة كسف ، بتصرف يسير .
(٢) لسان العرب مادة خسف .
(٣) النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣١) .